جامــعة الشهيــد حمه لخضر الوادي
كليــة الآداب و اللغات
قســم اللغـــة و الأدب العربي

مقياس: تحليل الخطاب السردي **السنة: الأولى ماستر**
تخصص: أدب حديث ومعاصر **من إعداد الاستاذة: تقار فوزية**

محاضرة: الفضـــاء المكـانـي في الرواية و أنماطه

أولا: <u>الفضاء في الراوية، مفاهيم نظرية</u>:

إن المكان في الراوية التقليدية يحيل على دلالة مباشرة ونهائية ومغلقة كانعكاس للواقع، أو بعبارة أخرى انعكاس للعالم الواقعي في العالم الكتابي، ليصبح مكوناً نهائيا وجاهزا سلفًا، لكنه عرف مع الراوية الجديدة وضعا واعتبارا خاصا؛ إذ أصبح خاضعا لتطور رؤية الكاتب الجمالية والمعرفية للواقع، فتغيرت طرق بنيته في النص الروائي وتمت إعادة تشكيله وخلقه وإبداعه بطريقة تضفي خصوصية على الرواية، لتتمظهر قوى إبداعية يكشف المؤلف من خلالها عوالم تعبر عن رؤاه وتبعده عن الجاهز المعطى وتعانق الممكن.

فالمكان الروائي كما يسميه بعض النقاد « مجرد وعاء يحتوي الأحداث الروائية ولا عبرة له إلا بكونه حاملاً لتلك الأحداث، ولا أهمية له على صعيد الكتابة الروائية خارج الرموز التي يوصف بها أو يدل عليها»[1]

ظل الفضاء المكاني مجالا مفتوحا لاجتهادات وتطورات النقاد والدارسين، حيث اختلفوا في معالجتهم له كاختلافهم في تحليل ودراسة الزمان وأصبح من أهم العناصر الأساسية المكونة للنص السردي وأحد الأسس الجمالية التي تنهض عليها.

---

[1] محمد الدغمومي: **<u>الرواية المغربية والتغيير الاجتماعي</u>**، دراسة سوسيو ثقافية، إفريقيا الشرق، د.ط، دت، ص 83 .

لقد أولى النقاد الغربيون اهتماما كبيرا لهذا الجانب بعد الحرب العالمية الثانية وأدخلوه ضمن دراساتهم النقدية تنظيرًا وإجراءً، والتي لم تصل إلى بلورة نظرية محددة لهذا المصطلح « ولم يصل الأمر إلى إقامة تطورات كلية لها حد معين من الشمول والتعميق رغم محاولات يوري لوتمان الهامة التي نوّه بها جميع المشتغلين بالفضاء» [2]، ممّا جعل "**ميتران**" " **H. Mitterand**" يؤكد أنه لا توجد نظرية مبنية حول الفضاء الروائي، وإنما يوجد فقط طريق للبحث مرسوم بشكل حسن، كما توجد بجانبه مسارات أخرى على شكل نقط متقطعة.» [3]

1- **مفهوم الفضاء المكاني:**

ينطلق " **لوتمان** " "**Loutman**" في تحديده لمفهوم الفضاء من مسألة التقاطبات القائمة عادة على الثنائيات الضدية فمفاهيم:

« الأعلى / الأسفل، القريب/ البعيد، المنفتح / المغلق، المحدود / اللامحدود والمنقطع / المتصل كلها تصبح أدواتاً لبناء النماذج الثقافية دون أن تظهر عليها أي صفة مكانية، ويرى لوتمان أن النماذج الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية في عمومها تتضمن نسبا متفاوتة وصفات مكانية تارة على شكل تقابل السماء/ الأرض وتارة على نوع من التراتبية السياسية والاجتماعية.» [4]

وبهذه المفاهيم يكون قد فتح "**لوتمان**" للفضاء في الرواية فتحا عظيما وكشف عن معاني ودلالات متعددة ضمن النص الروائي.

أما "**جوليا كريستيفا**" "**Julia Christiva**"، فترى أن الفضاء الجغرافي ليس منفصلا عن دلالته الحضارية فهو:

« يتشكل من خلال العالم القصصي، يحمل معه جميع الدلالات الملازمة له والتي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور حيث تسود ثقافة معينة أو رؤيا خاصة للعالم وهو ما تسميه "

---

[2] سعيد يقطين: **قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، ط1، 1997، ص 238.

[3] Henri Mitterand: **Le discourse du roman** , Paris, PUF, P 193.

[4] حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي**، ص 34.

إيديولوجيم العصر" "idiologéme" والإيديولوجيم هو الطابع الثقافي العام الغالب في عصر من العصور.»[5]

ينطلق "**غاستون باشلار**" "**Gastoun Bashlar**" في كتابه الذي ترجمه إلى العربية "**غالب هالسا**" بعنوان: "**جماليات المكان**" في تطوره لمفهوم المكان من الفلسفة الظاهرتية ومن أبحاث علم النفس ويربط بشكل مباشر بين المكان والإنسان وماله تأثير مباشر على سلوكاته معتمدًا على الثنائيات الضدية: (القبو/ العلية)، (البرج/ البيت)، حيث يقول عن دراسته:

« إنها تبحث عن تحديد القيمة الإنسانية لأنواع المكان الذي يمكننا الإمساك به والذي يمكن الدفاع عنه ضد القوى المعادية؛ أي المكان الذي نحب [...] إن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانًا لامباليا ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز»[6].

ركز هذا المفكر في دراسته على الأماكن التي لها صلة مباشرة بحياة الأفراد في مراحلها المتعددة، وعلى مستوياتهم الاجتماعية المختلفة، وهذا التنوع المكاني في النص يفرز تلك الرمزية الجمالية الفكرية ويتجاوز البنية السطحية الهندسية للمكان فيحمل قيما سوسيونفسية وفنية ويكون الفضاء حاملا ومنتجا لها، هذا ما جعله يصف هذه الدراسة بأنها **« بحث في تحديد القيمة الإنسانية لأنواع المكان، الذي يمكننا الإمساك به والذي يمكن الدفاع عنه [...]، المكان الذي ينجذب نحوه الخيال.»**[7]

بالموازاة مع تطور "**باشلار**" ينتقل "**جيرار جُنات**" إلى مستوى ثان، يتجه إلى مفهوم الصورة الشعرية أثناء تعرضه للحديث عن المكان في دلالة الأفضية، «**فهي تعتمد على اللغة لتشكيل سياقات تعبيرية لها ارتداد في مستوى المعنى، وقد يكون هذا المعنى حقيقيا أو مجازيا وعليه فالانسياق المجازي ينتج صورًا ذهنية تشكل الفضاء الدلالي للنص فالصورة التي يتحدث عنها "جيرار**

---

[5] المرجع نفسه، ص 34.

[6] غاستون باشلار: **جماليات المكان**. تر: غالب هالسا، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1984، ص 31.

[7] غاستون باشلار: **جماليات المكان**، ص 31.

جنات" هي تشكيل استعاري ومفهوم ذهني يشير إلى تركيب خطابي خاص يجعل المتلقي ينتقل من المستوى العادي لفهم النص إلى ربطه بمكونات أخرى تندرج ضمن المباحث البلاغية في عناصر الصورة الشعرية».[8] [بتصرف]

فالتشكيل المجازي للنص الروائي يحمل في ثناياه صورًا ذهنية لها دلالات عميقة **« فالفضاء الدلالي يتأسس بين المدلول الظاهر والمدلول الحقيقي، أين تلغى خطية الخطاب وتتشكل الصورة في الوقت ذاته مع تشكل الفضاء وإن كان غامضًا، حيث تهب اللغة نفسها له بل أنها رمز فضائية اللغة الأدبية في علاقتها مع الدلالة.»** [9]

لقد اكتسب المكان أهمية كبيرة في الرواية، وأصبح أحد الركائز الأساسية لها، لأنه أحد عناصرها الفنية والجمالية، فهو يشكل ضمن هذه المفاهيم محورا من المحاور الرئيسية التي تدور حولها نظرية الأدب.

« والمكانية لا تتشكل إلا من خلال الشخصيات التي تنوء بحمل الأحداث وتكشف في الوقت ذاته عن عمق وقع المكان وإيغاله من خلال خلجاتها المتعددة التي تضفي على المكان دلالات مجازية، يحققها المؤلف من خلال حركة نزوع الشخصيات البطلة في خلق نظام مكاني يؤسس ضمن فوضى المكان الذي يزجهم فيه المؤلف الذي يحقق أيضًا منظوره الفلسفي والجمالي من جانب، ومنظور أبطاله الإيديولوجي والنفسي من جانب آخر.» [10]

2- بين الفضاء و المكان:

إن لفظة " **Espace**" قد تُرجمت تارة إلى الفضاء وتارة أخرى إلى المكان أو الحيز رغم أن الغالبية ترتاح للترجمة الأولى " **الفضاء**" لكنه في كل الحالات يعتبر بنية حاملة لطاقة دلالية رمزية وإيديولوجية تجعله ينتقل من المستوى الواقعي إلى مستوى تثمين أفكار و ورؤى تنعكس على المنظومة الفكرية والمعرفية التي يحملها الملتقي.

---

[8] عمرعيلان: **الإيديولوجية وبنية الخطاب الروائي**، ص 215.

[9] Gérard, Genette**: Figuers1** , Editions, SEUIL. Paris, 1972. P 47.

[10] مهدي عبيدي: **جماليات المكان في ثلاثية حنامينة (حكاية بحار – الدقل – المرفأ البعيد)**، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، د.ط، 2011، ص 35، ص 36.

يعدّ الفضاء – هذا المفهوم النقدي السيميائي – جديد الاستعمال في الكتابات العربية التي كُتبت منذ ثلاثين عامًا، ولقد جاء استعماله بمصطلحات مختلفة نتيجة ترجمته من لغات غربية كثيرة كالفرنسية والإنجليزية.

فالفضـــاء « **هو معادل لمفهوم المكان في الرواية ولا يقصد به المكان الذي تشغله الأحرف الطباعية التي كُتبت بها الرواية، ولكن ذلك المـــكان الذي تصـــوره قصته المتخيل**ة.»[11]، فمدلول هذا المصطلح معادل لمفهوم المكان في الرواية، حيث نجد الناقد المغربي "**حسن بحراوي**" وازى بينهما عندما أشار في كتابه: "**بنية الشكل الروائي(الفضاء، الزمن الشخصية)**" أنه وقع اختياره على المكان أو الفضاء الروائي بوصفه عنصرا شكليا فاعلا في الراوية، كما أنه عنْون فصله الأول من كتابه السابق بـ : "**بنية المكان في الرواية المغربية**" بدلاً من بنية الفضاء وفقًا للعنوان، لأنه يتعامل مع المفهومين كمصطلح واحد.

أما "**سيزا قاسم**" في كتابها: "**بناء الرواية**" تقول حول مصطلح الفضاء: « **النص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكانًا خياليًا له مقوماته الخاصة وأبعاده المميزة.**» [12]

يؤيد "**حسن نجمي**" مصطلح الفضاء، ويوظفه حيث يقول : « **أنه موجود على امتداد الخط السردي، إنه لا يغيب مطلقا حتى ولو كانت الرواية بدون أمكنة، الفضاء حاضر في اللغة في التركيب في حركية الشخصيات في الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي.**»[13]

في حين يتبنى الناقد الجزائري "**عبد المالك مرتاض**" لفظة "الحيز" في كثير من كتاباته فيقول عنه: « **هو مصطلحنا**»[14]، ويذهب إلى أكثر من ذلك إذ يقر بأن مصطلحه هو الأنسب والأصح، فالفضاء « **قاصر بالقياس إلى الحيز؛ لأن الفضاء من الضرورة أن يكون معناه**

---

[11] حميد لحمداني: **بنية النص السردي**، ص 54.

[12] سيزا قاسم: **بناء الرواية**، ص 74.

[13] حسن نجمي: **شعرية الفضاء، المتخيل والهوية في الرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص 65.

[14] عبد المالك مرتاض: **في نظرية الرواية**، ص 142.

جاريا في الخواء والفراغ»[15]، والمكان محدود وضيق بالنسبة للحيز، ويضيف بقوله:« **إذا كان للمــكان حدود تحده ونهاية ينتهي إليــها فإن الحيز لا حدود له ولا انتهاء .**»[16]

فمصطلح الفضاء من وجهة نظره يراه قاصرًا بالقياس إلى مصطلح الحيز؛ «**لأن الفضاء يحيل بالضرورة إلى الخواء والفراغ، بينما الحيز يحيل إلى الحجم والشكل بما فيها من وزن ومسافة، على حين أن مصطلح المكان يقصره على الموقع الجغرافي في أضيق مساحة له في العمل الروائي**»[17] وكأن الحيز أشمل وأوسع ولا نهاية له، بينما الفضاء أضيق وأقل مساحة منه، و تبقى هذه الحدود التي قدمها حول المصطلحات الثلاثة غير دقيقة ولكنها محاولة اجتهاد منه لإنتصاره لمصطلح الحيز.

يرى "**حميد لحمداني**" أن مصطلح الفضاء شاسع بكل أبعاده فيقول: « **إن الفضاء في الرواية هو أوسع وأشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية، المتمثلة في صيرورة الحكي، سواء التي تم تصويرها بشكل مباشر أم تلك التي تدرك بالضرورة بطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية.**» [18]

فالمكان إذن، جزء من الفضاء، فلا يمكن أن تدركه إلا في إطار تلاحمه مع عناصر أخرى، مكونا بذلك الفضاء الذي يكسبه معنى الزمن ومع الشخصيات في تحركها لعدم انقطاعه من خلال حضوره في السرد، وعلى حد قول "**ميتران**" المكان: « **هو الذي يبني الفضاء**»[19]، وهكذا، يمكن له أن يوحّد العناصر الروائية جميعا بما فيها المكان لتكون بنية متماسكة ومتجانسة، ويبقى من العسير فصله عنها حتى تتحقق دلالته الفنية والإيديولوجية من خلال الفضاء الروائي.

---

[15] المرجع نفسه، **في نظرية الرواية** ص 141.

[16] المرجع نفسه، ص 146.

[17] المرجع نفسه، ص 141.

[18] حميد لحمداني: **بنية النص السردي**، ص 64.

[19] Henri Mitterand: **Le discourse du roman** .P194.

3-<u>أهمية المكان في الرواية</u>:

لقد حظي كل من الفضاء والمكان في الرواية باهتمام كثير من الدارسين; لأن المكان في النص الروائي يتجاوز كونه مجرد شيء صامت أو خلفية تقع عليها أحداث الرواية, فهو عنصر غالب في الرواية حامل لدلالة, ويمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها عناصر الرواية, لذا يرى البعض أن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفقد خصوصيته وبالتالي أصالته ، وللمكان تأثيره خارج النص الروائي, إذ يلعب دور المفجر لطاقات المبدع و يعبر عن مقاصد المؤلف.

– فالمكان في النص الروائي مكان متخيل وبناء لغوي تقيمه الكلمات انصياعا لأغراض التخييل وحاجته، فالمكان إذن نتاج مجموعة من الأساليب اللغوية المختلفة في النص؛ حيث يرى بعض الدارسين أن عبقرية الأدب حقا حيزه.

– كما أن للمكان أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث; إذ يرتبط بخطية الأحداث السردية؛ بحيث يمكن القول بأنه يشكل المسار الذي يسلكه تجاه السرد. وهذا التلازم في العلاقة بين المكان والحدث هو الذي يعطي للرواية تماسكها وانسجامها ويقرر الاتجاه الذي يأخذه السرد لتشييد خطابه، ومن ثمّ يصبح التنظيم الدرامي للحدث هو إحدى المهام الرئيسية للمكان.

– المكان – سواء كان مشهدا وصفيا أم مجرد إطار للحدث – يدخل في صلات وثيقة مع باقي المكونات الحكائية في النص الروائي، كما دخل في نسيج النص من خلال حركة السارد في المكان، فيغير إيقاع السرد بعبور السارد أمكنة مختلفة في الرواية مما يؤدي إلى تغير الأمكنة داخل الفضاء الروائي؛ الذي ينتج عنه نقطة تحول حاسمة في الحبكة وبالتالي في تركيب السرد والمنحنى الدرامي الذي يتخذه ، كأن تجري الأحداث في مكانين مختلفين تماما مثل رواية موسم الهجرة إلى الشمال بين بريطانيا و السودان.

– هناك علاقة تأثير وتأثر بين المكان والشخصيات الروائية – رئيسية وثانوية – إذ يعد المكان عنصرا أساسيا في تشكيل بنية هذه الشخصيات, كما أنه لا يتشكل إلا من خلال

اختراق هذه الشخصيات له وظهورها فيه بمميزاتها والأحداث التي تقوم بها فيه، الأمر الذي يؤكد لنا أن المكان حقيقة معيشة ويؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه، ذلك أن علاقة التأثير والتأثر بين المكان والإنسان تتوثق من خلال الدور الذي يلعبه كل منهما إزاء الآخر، فالمكان يكشف عن شخصية الإنسان، بينما يعطي الأخير للمكان قيمته من خلال تجربته فيه. فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها، ولكنها تنبسط خارج هذه الحدود لتصبغ كل ما حولها بصبغتها وتسقط على المكان قيمها الحضارية.

– يبين المكان الدلالة التاريخية والسياسية والاجتماعية لفئة اجتماعية معينة لبلد ما أ و قرية ما أو مدينة ما...، من خلال الأفعال وتشابك العلاقات، فإنه يتخذ قيمته الكبرى من خلال علاقته بالشخصية التي تنتمي لهذا المكان. كما أنه يساهم في إنتاج جمالية النص السردي التي تجذب المتلقي.

ثانيا – أنماط الفضاء المكاني في الرواية:

قدم الفكر النقدي الحديث تصنيفات عدة للمكان على وفق ما أفرزتها التنظيرات المعاصرة التي منحت المكان اهتماماً كبيراً أحدث نقلة نوعية في تعامل النقاد والباحثين مع هذا العنصر الذي ظل أسير النظرة التقليدية القاصرة على مدى الفترة الممتدة من (بلزاك – فلوبير) ، إلا أن الاتجاه النقدي الحديث أدخل الاهتمام بالمكان في ضمن أبرز التحولات التي حدثت في الرواية الجديدة ، فظهرت تصنيفات عدة للمكان منها: الأليف والمعادي ، والمغلق والمفتوح ، والواقعي والخيالي ، والعلوي و السفلي... ، وكل هذه الثنائيات الجدلية تتحدد على وفق احداث الروايات وما يتركه المكان من انطباع في نفس الشخصية.

ولقد اقترح **حسن بحراوي** تقسيم المكان الروائي إلى قسمين على أساس تقاطب ثنائية " الانغلاق و الانفتاح "إذ ميز بين أمكنة الانتقال و أمكنه الإقامة التي هي عبارة عن تقاطبات أصلية يمكن لها أن تتفرع إلى تقاطبات فرعية، فعرف أماكن الانتقال على أنها مسرحا لحركة الشخصيات وتنقلاتها مثل الشوارع والاحياء و المحطات، وأماكن لقاء الناس خارج بيوتهم مثل المحلات و المقاهي....وكما يمكن أن تنطوي هذه الماكن تحت تسمية الأماكن المفتوحة ؛ وهي عادة ما تكون ملكية عامة يشارك فيها جميع الناس.

في المقابل هناك أماكن الإقامة اطلق عليها بعض النقاد الأماكن المنغلقة كالبيت و السجن والمستشفى وأعطى **غاستون باشلار** بعدا إنسانيا للمكان ، حيث ميز بين : الأمكنة الأليفة و الأمكنة المعادية .

ويمكن أن تكون هناك أمكنة مختلفة تماما عن الأمكنة الواقعية وهي الأمكنة العجائبية السحرية ، التي تظهر وتختفي وتتحول ، تكون تحت الأرض أو في السماء....مثل روايات الخيال العلمي أو الروايات العجائبية. وسنحاول تحديد بعض أنماط المكان في الرواية عموما.

أ- الفضاء المغلق و الفضاء المفتوح:

الفضاء المكاني المغلق: هو« مكان محدود المساحة ويتصف بالضيق وهو فضاء طارئ ومفارق للمعتاد»[20] ، حيث يبقى الانسان في هذا المكان فترات طويلة أو قصيرة من الزمن سواء بإرادته، أو بإرادة الآخرين، لذا فهو « **المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، فقد تكشف الأمكنة المغلقة عن الألفة والأمان، أو قد تكون مصدرًا للخوف والذعر.**» [21]

- القرية الحقول أماكن مفتوحة و الاقامة الاختيارية

إن القراءة النقدية للأماكن المفتوحة والمغلقة في الرواية من شأنها أن تغني الدلالات والإيحاء بنوعية الشخصيات وخصائصها النفسية والثقافية وبطبيعة العلاقات التي تشدهم إلى بعضهم ومقدار الانفتاح والمواصلة التي يتمتعون بها حيال العالم ومن هنا جاءت عملية الصراع الجدلي بين الأماكن المفتوحة والمغلقة ، بل لعل من أبرز الثنائيات المتصارعة التي ظهرت وهيمنة على مسيرة الرواية العربية هي ثنائية المكان المفتوح والمغلق، فالفرد يتناوب في الانتقال بين أمكنة تكاد تشكل علباً مغلقة لأصحابها وبين أمكنة أخرى أكثر سعة وانفتاحاً وتفاعلاً مستمراً مع الحياة .

وقد شهدت النماذج الروائية المختارة هذا الصراع الجدلي بين المكان المفتوح والمكان المغلق , فأحداث رواية (**موسم الهجرة إلى الشمال**) تدور في **فضاء قرية** صغيرة عند منحنى النيل ، ثم تتشكل وفق مسار الأحداث على أماكن أخرى كثيرة منها المفتوح ومنها المغلق :((المهم أنني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل)ص(66). فالقرية مكان مفتوح تتحرك فيه الشخصيات وتتعامل بأساليب وأشكال مختلفة، وهي تشتمل على مجموعة من البيوت المغلقة والحقول

---

[20] فهد حسين: **المكان في الرواية البحرينية، دراسة نقدية**، فراديس للنشر والتوزيع، مملكة البحرين، ط1، 2003، ص 209.

[21] المرجع نفسه، ص 163.

والبساتين المفتوحة :((ذهبت إلى مكاني الأثير عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر .. أسمع أنين السواقي على النهر ، وتصايح الناس في الحقول ..) ص(67). فهذا المكان المفتوح يقع في هيكلية فضاء القرية المفتوح أيضاً الذي يشكل فضاءً أليفاً للشخصيات.

ومن الأماكن الأخرى المفتوحة التي تتشكل ضمن فضاء القرية العام : **الحقول** تلك اللوحة الخضراء التي تؤطر المكان وتشد إليه الشخصيات , وتمنحهم إحساساً جميلاً بالحياة :((ذهبت إليه ثاني يوم في حقله , فوجدته مكباً يحفر الأرض حول شجرة ليمون .. وعلى وجهه بقع الطين ..)ص(68).

فالحقول تكشف مدى إحساس الشخصية بالمكان وقدرتها على الانفتاح والتواصل والحياة ، فهذه القرية المفتوحة شد جمالها وخصوبة أرضها والأواصر الطيبة التي تربط أهلها مصطفى بطل الرواية إليها ، فمصطفى كان يعمل في التجارة في ضاحية من ضواحي الخرطوم ، ولكنه لم يكن يشعر بالأمن والاستقرار هناك فقرر أن يتحول إلى الزراعة، فلم يجد أجمل من هذه القرية : ((كنت في الخرطوم أعمل في التجارة ثم لأسباب عدة قررت أن أتحول للزراعة ، كنت طول حياتي أشتاق للاستقرار في هذا الجزء من القطر لا أعلم السبب وركبت الباخرة ... ولما رست في هذا البلد أعجبتني هيئتها وهجس هاجس في قلبي هذا هو المكان وهكذا كان ... لم يخب ظني في البلد ولا أهله .)ص(69).

ولكن ضمن هذا الفضاء المفتوح ذو المساحة الصغيرة تتشكل فضاءات مغلقة كثيرة وهنا يبرز الصراع الجدلي بين ثنائية المكان المفتوح والمغلق :((واستيقظت ثاني يوم وصولي في فراشي الذي أعرفه في **الغرفة** التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها)ص(70).

إلا أن بعض الأماكن المغلقة تصبح علباً مغلقة لأصحابها تسم تصرفاتهم بالانعزالية والانطوائية وهي حال بطل الرواية مصطفى فغرفته عالم مغلق يضج بالمفاجآت والأسرار لم ينكشف لأحد حتى زوجته التي لم تدخل إلى هذه الغرفة إلا بعد وفاته.

قالت : أظنه كان يخفي شيئاً . لاحقتها بالسؤال : لماذا ؟

قالت : كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة

– ماذا في تلك الغرفة ؟

– قالت لا أدري ،إني لم أدخلها قط – المفتاح عندك– لماذا لا تتحقق بنفسك ؟ ص72

* المستشفى، السجن أماكن مغلقة و الإقامة الإجبارية: يتحول الفضاء للمريض أو السجين من الفضاء المفتوح إلى المغلق والإقامة فيه إقامة جبرية، بوصفها عالمًا مفارقًا للحرية، « فالأمكنة الإجبارية معنية بالإقامة التي تبعد المرء عن العالم الخارجي وتعزله عنه وتقيد من حريته.» [22]

يمكن اعتبار المستشفى من مقومات الأدب الواقعي الممعن في قضايا المجتمع والمعبر عن مشاغل الناس وآلامهم، فهو مكان اجتماعي وملتقى لقطاع واسع من الناس والفئات المختلفة المراكز الاجتماعية. ولعل أبرز رموز هذا المكان باعتباره مكانًا:

للإقامة الجبرية للمريض

للإقامة المؤقتة المتعلقة بقانون المكان بالنسبة للزائر

للإقامة الاختيارية المرتبطة باحترام العمل بالنسبة للطبيب أو الممرض.

– ومن أبرز رموز السجن –باعتباره مكانًا للإقامة الجبرية – شديدة الانغلاق، هي تلك الأبواب الحديدية التي تحجب النزلاء عن العالم الخارجي وتكون الحد الفاصل بين الخارج والداخل، وبين الزنزانة كعزلة مطلقة وساحة السجن كحرية نسبية، لذلك كان لصوت الأبواب الحديدية على الشخصيات مدلول خاص.

يحمل السجن أيضا في كثير من الروايات دلالات سلبية، فهو مكان ضيق ومعزول عن الآخرين، وسخ ذو رائحة كريهة تبدو الحياة فيه رتيبة ومملة، وهذه الصفات تجعل منه مكانًا معاديًا ومكروهًا بالنسبة للشخصيات.

ارتبط مدلول السجن في الرواية العربية بمعاني الفساد السياسي والاجتماعي المنتشرة في المجتمع، وكيف لهذا المكان أن يضمّ شخصيات مظلومة، بسيطة ومثقفة.. كانت ضحية للرؤوس الكبيرة كالإقطاعيين و أرباب العمل.. التي بقيت خارج هذا الفضاء لتمارس سلطتها وأيديولوجيتها القهرية على الطبقات الشعبية البسيطة، فهو ليس سجنًا للجسد فقط وإنما سجنًا للنفس البشرية وحرماناً لها من حقوقها الشرعية « وهنا يصبح الفضاء السجني بؤرة للعجز قاهرة تتربص بالشخصيات النزيلة لتضاعف من معاناتها.» [23]

فالأمكنة المنغلقة متنوعة وعديدة منها ذات الإقامة الاختيارية كالبيت والمنزل والمقهى وأماكن أخرى للتنقل والحركة كالشوارع والأحياء والمدن، ثم الأماكن المتحركة كالسفينة والسيارة، « إن الحديث عن

---

[22] فهد حسين: **المكان في الرواية البحرينية**، ص 209 .

[23] حسن بحراوي: **بنية الشكل الروائي** ، ص 62.

الأمكنة المفتوحة هو حديث عن أماكن ذات مساحات هائلة توحي بالمجهول، كالبحر والنهر أو توحي بالسلبية كالمدينة، أو حديث عن أماكن ذات مساحات متوسطة كالحيّ حيث توحي بالألفة والمحبة، أو هو الحديث عن أماكن ذات مساحات صغيرة كالسفينة والباخرة.» [24]

ب-أمكنة العبور ووسائل التنقل:

إن الروايات العربية مليئة بأماكن التنقل التي تحتضن الشوارع والممرات والأزقة، والتي ترسم جسد الحياة وروح الأفراد فيها، وما تحويه من وسائل التنقل والمواصلات كأماكن متحركة وأمكنة السير متعددة، فمنها الطرق: البحرية والبرية والجوية، وهي «أماكن مسارات طويلة جدًّا، وتصل بين بلدين أو أكثر، وقد تكون ساحلية تساير الساحل أو تكون داخلية، وبالتالي مصب هذه الطرق هو المدن والقرى، وبالتالي يتم التنقل عليها بالسيارات والعربات».[25]

فأماكن العبور هي أماكن عمومية لا يمكن الاستقرار أو العيش فيها، فهي تمثل عصب الحياة في القرية أو المدينة أو الحي، والتي يسعى الانسان إلى تطويريها وتحسينها من أجل حياة رغدة، « فأماكن العبور ليست أماكن للعيش بل مجرد نقاط انتقال سريع أو توقف مؤقت، حيث يختار كل مؤلف المكان المعبر المناسب للسفر».[26]

وعلاقة الأمكنة ببعضها بعض علاقة جدلية ذات ارتباط وثيق ومتين، خاصّة بين أمكنة العبور والأمكنة المتحركة فيها، وسنقدم جدولا نبرز فيه أهم الفضاءات الانتقالية في الرواية:

أماكن العبور	الأماكن المتحركة (وسائل التنقل)
البحر-المحيط-النهر	السفينة-القارب-الغواصة
الصحراء	الجمل- السيارة
الجو	الطائرة
الشوارع والطرق والأحياء والأروقة	السيارة – العربة –

[24] مهدي عبيدي: **جماليات المكان في ثلاثية حنا مينة (حكاية بحار – الدقل – المرفأ البعيد)**، ص 95

[25] عبيدي مهدي: **نفسه)**، ص154.

[26] عمرو محمد عبد الواحد: **شعرية السرد، تحليل الخطاب السردي في مقامات الحريري**، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، 2003، ص99.

أماكن العبور هي أماكن ذات إقامة مؤقتة ويمكن اضافة أمكنة أخرى ذات بعد اجتماعي وهي أمكنة الإقامة فيها متكررة لكن مؤقتة تتعلق بمستوى الشخصية وحالتها ويمكن ان يمثل المكان عتبة تحول وانتقال في حياة الشخصيات كـ: المدرسة – الجامعة –المسجد– المقهى..

* ففي رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) أشكال عدة لفضاء العتبة فـ(المدرسة) تشكل واحداً منها ؛ حيث كانت المدرسة نقطة انطلاق (مصطفى) إلى عالمه العجيب : ((..قلت له أريد أن أدخل المدرسة نظر إليَّ الرجل بعطف ثم قيدوا اسمي في سجل وسألوني كم عمري فقلت لهم لا أدري ،وفجأة دق الجرس ، فررت منهم ودخلت إحدى الحجرات)ص(45)، والمدرسة أيضاً كانت المحطة الأولى التي أوصلت الراوي إلى إنجلترا لنيل شهادة الدكتوراه.

فالمدرسة مكان انتقالي تقضي فيه الشخصية وقتاً معيناً ثم تغادره ؛ بل هي محطة عبور إلى مستويات أخرى، وكذلك المقهى محطة أخرى تقضي فيها الشخصية وقتاً معيناً ثم تعود إلى عالمها الخاص :((كنا حين تكلُّ أقدامنا من الطواف نلوذ بمقهى بجوار جامع الأزهر, ونشرب عصير التمر هندي , ويقرأ مستر روبنسن شعر المعري..)ص(47). فالمقهى مكان كان يلجأ إليه للاستراحة وتناول بعض المشروبات.

وهناك المسارح شكل آخر من أشكال فضاء العتبة :((وكان المغنون يرددون أهازيج الحب الحقيقي والمرح في مسارح لسترسكوير..)ص(48). وأيضاً الحانات:((عرفت حانات تشلي , وأندية هامبستد , ومنتديات بلومزيري , أقرأ الشعر وأتحدث في الدين والفلسفة وأنقد الرسم ...)ص49.

ج – الفضاء الأليف والفضاء المعادي:

من الطبعي أن يكون الإحساس بالمكان مرتبطاً بنوعية علاقته بالشخصية التي تصفه ، إذ أن الأمر هنا لا يخضع لأية نظرة محايدة ؛ بل يتعلق ويتوغل إلى شعور ورؤى الفنان ، ومن ثمّ يكون تحديد المكان مقروناً بعاطفة زمنية معينة ، فالتجربة المكانية هي التي تحدد المكان وأبعاده ، وقد أكد **باشلار** في دراسته للمكان على استكناه جميع الظواهر الحسية والشعورية والنفسية، حيث حاول تحديد الأسباب التي تدفعنا للالتصاق بمكانٍ ما وألفته ومعرفة الاحساسات التي تحدو بنا لكره مكانٍ ما ومقته بوساطة استحضار ذكرياتنا وخبراتنا الشعورية ونوعية التجارب التي مررنا بها في هذا المكان بعينه ، حيث تبرز مشاعر: الخوف والأمن والطمأنينة والاحساسات الأخرى ، فإذا كان الإنسان في أول مواجهة له للحياة ينطلق من البيت – حسب **باشلار** –

إن علاقات الشخصيات بمنازلها تتنوع بتنوع الأزمنة الذاتية ، لذلك فإن الغالب على علاقة الشخصيات بمنازلها صفة التذبذب التي تتراوح بين نفور وحب ، بين الاحتماء بها والهروب منها ،ففي لحظات السعادة تتآلف الشخصيات بالأماكن وفي لحظات البؤس تضطر إلى مغادرتها والتنكر لها . فالراوي الأول في رواية (**موسم الهجرة إلى الشمال**) للروائي السوداني(الطيب صالح) كان إحساسه بالبيت وبالأهل والبلد إحساساً عميقاً تؤطره الألفة والمحبة التي لم تفارقه حتى وهو يقيم في إنجلترا لتحضيره الدكتوراه " كنت أطوي ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ، أراها بعين خيالي أينما التفت أحياناً في أشهر الصيف في لندن إثر هطلة مطر كنت أشم رائحتها في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس كنت أراها في أخريات الليل ..." ص(15).

فاستحضار الراوي لأهله وبلدته وألفتهم يعني استحضاره لبيته وألفته ، وقد يكون مشهد الألفة أكثر وضوحاً في اللحظة التي عاد فيها إلى أهلة وبلدته وعانقته أنفاس غرفته الحميمة :((استيقظت ثاني يوم وصولي , في فراشي الذي أعرفه في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها , وأرخيت أذني للريح . ذاك لعمري صوت أعرفه , له في بلدنا وشوشة مرحة . صوت الريح وهي تمر بالنخيل غيره وهي تمر بحقول القمح , وسمعت هديل القمري , ونظرت خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا , فعلمت أن الحياة لا تزال بخير " ص16.

فانطباع المكان في شخصية الراوي انطباع أليف وإحساسه به إحساس عميق ، وكذلك جد البطل عندما نتلمس علاقته بالبيت , نجدها علاقة قائمة على ألفة تاريخية لم تتغير على الرغم من المجاعة والطاعون :((هذه الدار الكبيرة , ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ،ولكنها من الطين نفسه الذي يزرع فيه القمح , قائمة على أطراف الحقل تماما ، تكون امتداداً له ، وهذا واضح من شجيرات الطلح والسنط النامية في فناء الدار والنباتات التي نمت في الحيطان نفسها ؛ حيث تسرب إليها الماء من الأرض المزروعة ... اكتسبت هيئتها هذه على مدى أعوام طويلة .. إذا نظرت إليها من الخارج .. أحسست بها كياناً هشاً لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشيء كالمعجزة)ص(17).

فهذا الوصف وهذا الانطباع عن البيت ، تحكمه ألفة حميمة لم تؤثر فيها تقلبات الزمن وصروفه، ولكن علاقة شخصيات رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) ببيوتهم غير ثابتة ، فبعض الشخصيات لم يجد شيئاً يربطه ببيته فيظل متنقلاً من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن الدفء والاستقرار .ف(مصطفى سعيد) بطل الرواية ترك بيته ولم يعد إليه ؛لأنه لم يشعر فيه بالحميمية والدفء , يمكن أن نلمس ذلك من العلاقة الضبابية التي كانت تربطه بأمه :" لعلني كنت مخلوقاً غريبا ، أو لعل أمي كانت غريبة ،لا

أدري ، لم نكن نتحدث كثيراً ،وكنت لعلك تعجب أحس إحساساً دافئاً بأنني حر , بأنه ليس ثمة مخلوق أب أو أم يربطني كالوتد إلى بقعة معينة ومحيط معين ..)ص(19).

فعلاقة مصطفى بالبيت علاقة توتر وقلق وغربة , حيث انعكست علاقته بالمكان عن علاقته بأمه ، لذلك لم يكن البيت مستقراً وحامياً لهذه الشخصية، فبدأت الترحال بحثاً عن الاستقرار، فهذه الشخصية طموحة وقلقة، هذا القلق ظهر على علاقته بالمكان .. حتى عندما استقر في لندن وعاش عيشة الملوك ، لم تكن ثمة ألفة تربطه حتى بغرفة نومه وفراشة :((غرفة نومي مقبرة تطل على حديقة . .. ستائرها وردية منتقاة بعنايــة وسجاد سندسي دافئ، غرفة نومي صارت ساحة حرب فراشي كان قطعـة من الجـحيم))ص(21)، فالبيت أفتقد ألفته وأصبحت علاقته بالشخصية علاقة قلق وتوتر وخوف، وتصبح هذه الشخصية في موقف الهرب من أماكنها الأليفة.

فالمكان المعادي يأتي في الطرف النقيض للمكان الأليف، فثمة أمكنة لا يشعر الإنسان بألفة ما نحوها؛ بل يشعر نحوها بالعداء والكراهية ، وهي أماكن قد يقيم فيها الإنسان تحت ظرف إجباري كالمنافي والسجون والمعتقلات والأماكن الخالية من البشر وأماكن الغربة.

ف(مصطفى سعيد) في رواية (**موسم الهجرة إلى الشمال**) حكم عليه بالسجن سبع سنوات في إنجلترا ، هذا المكان الذي لم يجد فيه غير **مسزروبنسن** ، فالحرية التي كان يتمتع بها لم تعد متاحة له في السجن ، والأشياء التي كانت مألوفة وحميمة عنده ليست أمامه . ولذلك تولد لديه شعور عدائي نحو هذا المكان الذي فرض عليه بشكل إجباري.